

خصائص وإتجاهات المستشرقين الروس والسوفيت في كتابة التاريخ العربي

Characteristics and trends of the Russian and Soviet Orientalists in writing Arab history

إعداد الدكتور: هاشم حسن حسين الشهبواني

مدرس في قسم السياسات العامة، مركز الدراسات الإقليمية، جامعة الموصل - العراق

Email: hashim.alshahwan@yahoo.com

Mobil: 9640007705909636

مستخلص

اهتم المؤرخون الروس والسوفيت بالدراسات العربية، وألفوا كتباً مهمة أخذت مكانها في المكتبة العربية بجدارة، لأنها تميزت بالجدية والحياد والموضوعية، واتخذت من المنهج العلمي طريقاً في تحقيق أفضل النتائج إذا ما قورنت بالكتابات الغربية، رغم أنها لم تخل مما يوتر في مصداقيتها، سيما فيما يخص فلسفتها للإحداث، فالتفسير المنهج وإخضاعها الأحداث التاريخية العربية لشروط الجدلية التاريخية أخرجها عن طابعها العام.

والدراسة فيها متابعة لهذه المدرسة التاريخية العالمية في ضوء ما أنجزه بعض المؤرخين من دراسات تناولوا فيها التاريخ العربي الحديث والمعاصر متخذةً منها نماذج حية. وبنفس الوقت ساقطت معها مجموعة من النصوص والمعالجات التي أوردها هولاء المؤرخون.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، المؤرخون، الروس، السوفيت، تاريخ، العرب .

Characteristics and trends of the Russian and Soviet Orientalists in writing Arab history

Dr. Hashim Hasan Hussein Al –Shahwani

Department of Public Policy/ Regional Studies Center / Mosul University/

Iraq

Abstract

The Russian and Soviet Historians were interested in Arab History and they wrote important books which have a notable manner in the Arab Library as they are serious and neutral, also, followed a scientific method and achieved significant results in comparison with writings of western orientalists although it was not quite credible especially regarding its philosophy for events. Methodical interpretation and exposing Arab historical event to its material conditions took it out of its public property. That is noted by the follower for this historical school and the Arab history subjects they tackled.

Key words: Orientalism, historians, Russians, Soviet, history, Arabs.

مقدمة

كلما أثير الحديث عن الاستشراق، ينصرف الذهن نحو الدراسات الاستشراقية التي أنجزت في بلدان أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، وأهمل الدراسات التي أنجزت في عدد من أقطار أوروبا الشرقية التي لها تاريخ طويل وتقاليد راسخة في هذا الميدان، وفي مقدمتها روسيا وأوكرانيا وبولونيا والمجر، وجمهوريات ما كان يعرف سابقاً بيوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا، وهو ما جعل تاريخ الاستشراق في هذه البلدان، يكاد يكون مجهولاً في أوساط المتقنين العرب، وجعل الباحثين المعاصرين يعزفون عنه لندرة المؤلفات العربية المكتوبة حوله، والتي اقتصرت في دراسات عامة حول الاستشراق العالمي أو مقالات متفرقة في بعض المجالات العربية.

ولئن كنا نعرف الكثير عن اهتمامات الكتاب الغربيين، والى حد اقل الوسط الأوربي بهذا الشرق، فإن ما نعرفه عن اهتمامات مشابهه لسكان الشرق الأوربي يكاد يكون قريباً من بعض التصورات الغامضة، التي وصلنا الكثير منها عن طريق ما عرف بنشاط الروس للوصول الى المياه الدافئة، التي تطرق إلى جوانب معينة منها مؤرخين غربيين، عندما تحدثوا عن أطماع روسيا القيصرية في أقطار المشرقين الأدنى والأوسط.

تناول البحث الموضوع من خلال محاور عدة، ناقش من خلالها جوانب من كتابات المؤرخين الروس والسوفيت، وما تمخض عنها من دراسات وأبحاث تناولت تاريخ المنطقة العربية. فبدأ بإعطاء فكرة عن ماهية الاستشراق الروسي والمفهوم العام له، وما تميز به عن الاستشراق الغربي، والتحدث عن ذلك العلم المعرفي وكيف تدرج ونما؟، ومن ثم تناول محاور الموضوع التالية محاولات التعرف على الاتجاهات والخصائص والمميزات التي تميز بها، وطرح ذلك كله من خلال اختيار نماذج من المستشرقين الروس والسوفيت، واهم كتبهم التي تناولوا فيها تاريخ العرب الحديث والمعاصر، نذكر منهم تحديداً ثلاث كتاب اولاً: المستشرق السوفيتي (ليف نيكولا بيفيج كوتلوف) في كتابه "ثورة العشرين". ثانياً: المستشرق (فلاديمير بوريسوفيتش لوتسكي) في كتاب "تاريخ الأقطار العربية الحديث" وأخيراً المستشرق (بوندارفسكي) وكتابه "سياستان إزاء العالم العربي".

إعتمد البحث على مصادر عدة أهمها الكتب الثلاثة لرواد الاستشراق الروسي المذكورة كوثائق حية ونماذج تفسر الموضوع، فضلاً عن كتاب "الرحالة الروس في الشرق الأوسط" لـ ب.م. دانسنغ، وكتاب المؤرخ العراقي (علي الورددي)، "لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث" وكتاب المؤرخ (كمال مظهر احمد)، "ثورة العشرين في الاستشراق السوفيتي" إلى جانب كتب وبحوث ومقالات اخرى مهمة.

أهمية الموضوع:

تتأني أهمية دراسة موضوع الاستشراق؛ كونه علم ومنهج تاريخي يرتبط بتاريخ العرب والمسلمين وحاضرهم، سيما وان الكتاب والمستشرقين الروس كانت لهم دوافع تختلف عن الدوافع الغربية الاستعمارية، حيث تتميز نتاجاتهم بجانب من الموضوعية والتعاطف مع الشعوب العربية والاسلامية ومناهضة المنهج الاستشراقي الكولونيالي الاستعماري الغربي الذي تسوق له الدراسات الاستشراقية الغربية، فضلاً عن الضرورة القصوى للاطلاع على ما أنتجه هؤلاء المؤرخون عن المنطقة العربية والاستفادة من اطروحاتهم في تفسير السلوك السياسي والعلاقات الدولية والمراحل التاريخية المهمة التي تخص العرب والمنطقة.

أهداف البحث:

- ١- الوقوف على مناهج واساليب المستشرقين الروس والسوفيت في معالجة تاريخ العرب.
- ٢- الاطلاع من خلال الدراسات الاستشراقية على جوانب التعاون والتواصل الحضاري بين الشعوب العربية والاسلامية والشعوب الروسية.
- ٣- الوقوف على جوانب التشابه والاختلاف بين مناهج المستشرقين الغربيين والمستشرقين الروس والسوفيت، في معالجة التاريخ العربي والاسلامي.

فرضية البحث:

تتم الدراسة من خلال تحليل نماذج من كتابات المستشرقين الروس والسوفيت، وفيها سنحاول العثور على إجابات لبعض الاسئلة؛ منها هل أن خصائص كتابات أولئك المستشرقين تختلف في مضمونها عن كتابات المستشرقين الغربيين؟ وهل كانت كتاباتهم أقرب الى كنه الحقائق التاريخية التي عرضوها؟ ولماذا لم تأخذ كتاباتهم شهرة ومكانة وإقبال كما هو الحال بالنسبة لدراسات المستشرقين الغربيين؟.

١- مفهوم الاستشراق

الاستشراق هو: "علم الشرق أو علم العالم الشرقي وكلمة (مستشرق) بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله؛ أقصاه ووسطه وأدناه، في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه"، وما يعنينا هنا المعنى والمفهوم للاستشراق الذي يعنى الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الاسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته، وهذا المعنى هو الذي ينصرف اليه الذهن في عالمنا العربي والاسلامي. (زقزوق، ١٩٩٧، ص ١٨). والاستشراق هو مصطلح متنازع عليه، ويرجع ذلك في المقام الأول إلى مرجعيته الجغرافية لمجموعة متنوعة من الحضارات الكبرى في شرق أوروبا. بحلول القرن الثامن عشر، وأشار المصطلح في المقام الأول إلى المنح الدراسية التي استخدمت لدراسة ما يسمى باللغات الشرقية. (Varisco, 2015 ، لقد تباين مفهوم الاستشراق واختلف بين المستشرقين الذين لهم باع طويل في هذا الحقل المعرفي، وبين المفكرين العرب الذين أبدوا اهتماماً واسعاً به، ودائماً قُدِّمَ الاستشراق- وهنا لم يتم الحديث إلا عن الاستشراق الأوروبي الغربي- على أنه إنتاج النظرة الأوروبية العنصرية تجاه الشرق، هذه النظرة التي تقترض حق الهيمنة والسيطرة على الشرق بداعي التفوق الأوروبي، في الوقت الذي كان يعاني فيه من العجز نتيجة الاستعمار الأوروبي الغربي له، فقام المستعمر بتوصيف المستعمر وإنشائه حسب ما يحلو له ويخدم مصالحه، وكرس هذا الوصف في وعي الإنسان الأوروبي الغربي لأجيال عديدة، وكثيراً ما تنطوي على رؤية الثقافة العربية على أنها غريبة ومتخلفة وغير حضارية وخطيرة في بعض الاحيان (WHAT IS ORIENTALISM). لقد حدد المستشرق الالمانى المعاصر (رودي بارت Rudi Paret) هدف الاستشراق في وضوح وصرامة وجاءه فيقول: "كان الهدف من هذه الجهود الاستشراقية في ذلك العصر، وفي القرون التالية هو التبشير، وهو إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الاسلام، واجتذابهم الى الدين المسيحي (الشرقاوي، ١٩٩٢، ص ٣٥).

عرف إدوارد سعيد الاستشراق: على أنه أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي (أنطولوجي) ومعرفي (أبستمولوجي) بين الشرق - وفي معظم الأحيان - والغرب، وهو يتضمن الموقف التنفيذي السلطوي للاستعمار الأوربي كأسلوب للسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه (سعيد، ١٩٨١، ص ٣٨). ويرى آخرون أن ازدهار الدراسات الشرقية تعزى إلى ارتباطها بالاستعمار الأوربي وسيطرته على بلدان الشرق الأقصى والعالم العربي، فيقول أنور عبد الملك: "إن الازدهار الحقيقي للدراسات الشرقية في القطاعين الرئيسيين اللذين هما الشرق الأقصى والعالم العربي، يعود تاريخه بالدرجة الأولى إلى عصر التمرکز الاستعماري، وبشكل خاص إلى السيطرة الأوروبية على القارات المنسية في أواسط القرن التاسع عشر، ثم في ثلثه الأخير (معهد الاستشراق الروسي، ٢٠٠٨، موقع جريدة الراية).

أما المستشرقون أنفسهم، فيرون أن الاستشراق تم بدافع الفضول المعرفي للشعوب الأخرى، فيرى مكسيم رودنسون، أن الاستشراق كان يعبر عن الرغبة في توسيع الفلسفة الإنسانية (هيومانيزم) لعصر النهضة (سعيد، ١٩٨١، ص ٣٢٣).

ففي نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، أرادوا أن يضيفوا إلى الحضارات النموذجية الكلاسيكية التي تستلهمها أوروبا حضارات أخرى. وهكذا أضافوا نماذج من الحضارات الشرقية، ولما أرادوا التوصل إلى معرفة تلك الحضارات معرفة علمية، نما الاستشراق وازدهر، ولكن إرادة المعرفة العلمية هذه بالحضارات الشرقية تمت عندما استطاع الغرب أن يغدو أقوى من الشرق، وبالتالي أصبح هذا الأخير موضوعاً مدرّساً والغرب جهة دراسة، بعد أن أدرك الغرب تفوقه واختلقت العلاقات بين الشرق والغرب عما كانت عليه عندما كان الشرق مزدهراً والغرب يعاني من الضعف والانحطاط. وبالتالي فإن الاستشراق الغربي، ارتبط بالمشروع الاستعماري الفرنسي - البريطاني، والذي أصبح الاستشراق وجهه الثقافي (سعيد، ص ٣٢٣).

٢- نظرة في تاريخ الاستشراق الروسي والسوفيتي

لا يعرف بالضبط متى بدأ الاستشراق، ومن هو أول غربي عني بدراسة الشرق، ولكن من المؤكد أن القسس والرهبان كانوا أول من قصد الاندلس وقصورها أبان عظمتها وتعلموا في مدارسها ودرسوا علوم القرآن والادب واللغة العربية، وتتلذذوا على علماء مسلمين في علوم شتى، وترجموا القرآن وكتب في الطب والفلسفة والرياضيات، وكانت تلك البداية وتطور ذلك العلم لديهم وأنشئت مدارس وأكاديميات في أغلب الدول الغربية، ومن أوائل أولئك الرهبان الراهب الفرنسي (جيربرت Jerbert)، الذي انتخب بابا لكنيسة روما عام ٩٩٩م بعد تعلمه في معاهد الاندلس وعودته إلى بلاده، و(جيرار دي كرىمون ١١١٤-١١٨٧ Gerard de Gremono)، وبعد أن عاد هؤلاء إلى بلادهم نشروا الثقافة العربية ومؤلفات أشهر علماء المسلمين (السباعي، ١٩٧٩، ص ١٣)، وبخصوص الاستشراق الروسي فقد شجعت الحكومات الروسية في العهود المختلفة دراسة التراث العربي الإسلامي وخاصة ذلك الذي يتعلق بالأقاليم الإسلامية الواقعة تحت سيطرة روسيا، وذلك لتوسيع المعرفة بالشعوب الإسلامية، وكانت المصادر الثقافية العربية تشكل ركناً أساسياً من مصادر معرفة شعوب القوقاز وآسيا الوسطى وحتى الروس. هذه المعرفة التي انعكست بشكل إيجابي لمصلحة روسيا كما يعترف بذلك المستشرقون أنفسهم، فيقول أحدهم: "كنا نعيش جنباً إلى جنب مع شعوب آسيا الوسطى لمدة طويلة،

الروس أنفسهم يرون أن التراث الشرقي الإسلامي هو جزء من تراثهم". ويقول المستشرق بلوندين: "نحن الروس وجميع الذين في الساحة الروسية القيصرية السابقة، نحن شرقيون بأنفسنا، وجزء من أراضينا موجود في آسيا، وثلاثي حدودنا مع دول آسيوية" (عبد الفتاح، ٢٠٠٠، ص ٢٨).

ونظراً لقرب روسيا النسبي من الشرق، فقد تمكنت من ربط أو اصر العلاقات مع هذه المنطقة منذ زمن مبكر من التاريخ، وكان الاستشراق قوياً في روسيا منذ عهد بعيد حيث تعود الصلات بين روسيا والعالم الإسلامي إلى زمن الدولة العباسية، حيث تبادلت الدولة الإسلامية السفارات مع روسيا، ولما احتلت روسيا بعض المناطق الإسلامية ازداد الاهتمام بالإسلام والعالم الإسلامي، ظهر لديها ما يعرف بالاستعراب: وهو الاهتمام باللغة العربية وآدابها وتطلق كلمة مستعرب على من اختص بدراسة العرب وأحوالهم ومميزاتهم، وعلى من يعني باللغة العربية وآدابها (عبد الفتاح، ٢٠٠٠، ص ٢٨).

إن الاستعراب ظهر وتطور كحقل خاص ضمن الاستشراق الروسي في الفترة نفسها تقريباً، ففي تعليق لبارتولد، وهو أحد أكبر المستشرقين السوفيت، على الاستعراب الروسي في القرن الثامن عشر ويستشهد بقول كراتشكوفسكي حين يقول: "إن الحاجة لمعرفة الشرق والثقافة العربية في ذلك العهد أصبحت ملموسة دون شك وحتى قبل ذلك" (أحمد، ١٩٧٧، ص ١٢).

أخذت روسيا تهتم بالاستعراب في القرن الثامن عشر بناء على توجيهات القيصر (بطرس الأكبر) الذي أمر بنسخ بقايا الكتابات العربية المحفوظة في مدينة بولغار. هذه المدينة أعتنق سكانها الإسلام عام ٩٢٢. ومن الواضح أن عملية نشر هذه الكتابات لعبت دوراً هاماً في تطوير الاستعراب الروسي في تلك الفترة. أطلق بعد ذلك الكاتب المعروف أ. كاتنيمير (١٦٧٣-١٧٢٣) مبادرته في تأسيس أول مطبعة بالحرف العربي. وفي عام ١٧١٦ صدرت في روسيا أول ترجمة كاملة للقرآن الكريم باللغة الروسية. كما أنشئت بتوجيه من بطرس الأكبر أولى مدارس الترجمة للمستعربين. أما في النصف الثاني من القرن الثامن عشر فقد دخلت اللغة العربية في مناهج المدارس الثانوية في بعض المدن الروسية مثل أستراخان، غير أن بداية انطلاقة العهد الجديد في الاستعراب الروسي فتعود إلى بداية القرن التاسع عشر، إذ تم إدخال تدريس اللغات الشرقية في الجامعات الروسية. وتأسست أول أقسام اللغة العربية في خاركوف وقازان وفيما بعد في موسكو (حركة الاستعراب في روسيا، ٢٠٠٩).

بدأ الاستعراب الروسي من المرسوم الجامعي سنة ١٨٠٤، فهذا المرسوم أدخل تدريس اللغات الشرقية في برنامج المدارس العليا وأسس الأقسام الخاصة لهذه اللغات، وأما اللغات الشرقية في أوروبا الغربية في ذلك الزمان، فقد كانت المكانة الأولى بين اللغات السامية اللغة العبرية، أما في روسيا، فاللغات الشرقية في مفهوم الروس، كانت لغات الشرق الإسلامي، وشغلت اللغة العربية المكانة الأولى بينها، وقد أنشأ قسم اللغة العربية في جامعة خاركوف بعد صدور المرسوم في عام ١٨٠٤ مباشرة. وقد كان للاستعراب الروسي منذ البداية مدرستان متميزتان، ارتبطت إحداها بوزارة الخارجية الروسية، وساهمت هذه المدرسة في خدمة القرار السياسي والمصالح الروسية الخارجية، وكان هناك أيضاً في روسيا اتجاه للدراسات الشرقية لأغراض سياسية مع أهداف دينية (عبد الفتاح، ٢٠٠٠، ص ٢٨).

ويمكن اعتبار البداية الفعلية للاستعراب العلمي في روسيا في عام ١٨١٨م حيث تأسس "المتحف الآسيوي" في بطرسبورغ على يد أحد أكبر المستشرقين في ذلك الحين خ.د. فرين (١٧٨٢-١٨٥١). وكان هذا المستشرق قد أجرى سلسلة كبيرة من الأبحاث في علم المسكوكات العربية، وقام بدراسة المراجع العربية في تاريخ بلاد الروس، وتعود إليه أولى الدراسات لأعمال ابن فضلان (حركة الاستعراب في روسيا، ٢٠٠٩).

ساهم وجود المستعربين من العسكريين في القوقاز في ترجمة العديد من الآثار الأدبية العربية الإسلامية، إذ قام الجنرال (بوجوسلافسكي) بترجمة القرآن الكريم من العربية إلى الروسية مباشرة، ومن المستشرقين الروس كاظم بك الذي دخل الإسلام وقام بتحقيق مخطوطة (اليعقوبي)، وكذلك (رازين) الذي يعتبر متخصصا في اللغتين العربية والفارسية ونجد أيضا (كريمسكي) (١٨٧١م-١٩٤١م) الذي تعلم العربية والفارسية وأسس مكتبة كبرى في جامعة موسكو. ومن أشهر المستشرقين الروس (كراتشكوفسكي) الذي شغف منذ صغره بدراسة آراء المستشرقين ودراسة اللغة العربية وذهب إلي الشرق فزار مصر وسوريا وفلسطين، فأطلع علي خزائن كتبها وتعرف إلي علمائها وأدبائها، ثم عاد إلي بلاده وعين أستاذا للعربية وثمة رأي يقول أنه كان مكتشف الأدب العربي الجديد بالنسبة للغرب (حركة الاستعراب في روسيا، ٢٠٠٩).

وقد أفادت روسيا من الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا وبخاصة في فرنسا حيث أوفدت روسيا بعض الباحثين للدراسة في مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس. وازدادت عند توسع الإمارة العثمانية وتحولها الإمبراطورية التي باتت تتاخم الحدود الروسية مباشرة ونتج عن ذلك وجود علاقة تراوحت بين المد والجزر والصدقة والعداوة (عبد الفتاح، ٢٠٠٠، ص ٢٨).

وكانت الحروب الروسية التركية تشكل نزوة التعبير عن التوجه الروسي نحو المياه الدافئة الجنوبية وأصقاع الشرق الأوسط الغنية، فقد شهدت الفترة الممتدة بين النصف الثاني من القرن السابع عشر والنصف الثاني من القرن التاسع عشر سلسلة حروب وقعت بن الدولتين من اجل السيطرة على سواحل البحر الأسود والمناطق القريبة منها (القفقاس والبلقان) مع امتدادات الأولى منها. إن هذه الحروب التي بلغ عددها عشرة وتجاوز مجموع سنواتها ثلاثين عاما، ازدادت ضراوة وتأثيرا على العلاقات الدولية بشكل متواز مع ازدياد أطماع روسية وانحلال الإمبراطورية العثمانية وتهافت الدول الأوروبية الكبرى على أصقاع الشرق الأوسط المختلفة، وهو الدافع ذاته الذي حمل الروس لتكثيف ذلك الاهتمام بالدراسات الشرقية وتاريخها (أحمد، ١٩٧٧، ص ١٢).

إن القضايا التي عرضناها فضلا عن عوامل أخرى هيأت أرضية مناسبة لظهور الاستشراق الروسي وتطوره بسرعة. فبدأت دراسة الشرق علميا في روسيا منذ القرن الثامن عشر واستطاعت أن تقطع شوطا كبيرا من التطور خاصة في القرن الماضي، الذي شهد نشأة عدد من المؤسسات التي أولت دراسة بلدان الشرق الأوسط وشعوبها اهتماما كبيرا، مثلا المتحف الآسيوي، الذي مر ذكره، وقسم الدراسات الشرقية في الجامعة ذاتها، وقد تم فتحه في العام ١٨٥٥ وقسم دراسة اللغات الشرقية التابع للدائرة الآسيوية في وزارة الخارجية الروسية، حيث ضمت قسم اللغة العربية وآدابها، إلى جانب جمعيات علمية جغرافية واثارية مختلفة. فالنجاحات التي تم تحقيقها داخل هذه المؤسسات جعلت من المؤرخ المعروف الأكاديمي بارتولد ١٨٦٩ - ١٩٣٠ يرى،

أن الاستشراق الروسي قد تمكن من تحقيق نجاحات اكبر مما حققتها نظائره في بلدان أوروبا الغربية خلال القرن الماضي (أحمد، ١٩٧٧، ص ١٢).

وتحول المتحف الآسيوي فيما بعد إلى معهد الإستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية في مدينة سانت بطرسبورغ، وهو يجمع بين كونه هيئة أكاديمية ونموذجاً لثقافة الحوار بين البلدان والأديان والشعوب المختلفة في العالم المعاصر، وهو مركز مهم من مراكز التسويق للفكر الجديد، وقد كتبت عنه إحدى الصحف العربية مؤخراً وذكرت بأنه احتفل بيوبيله ال ١٩٠ وهو لازال يتابع مهامه العلمية في البحث النشر وتدريب الطلبة، وقد وضع المعهد نصب عينيه منذ البداية تحقيق عدة مهام، ثقافية، وعلمية، وتعليمية، وهذه المهام يمكن حصرها بالتالي: (معهد الاستشراق الروسي، ٢٠٠٨، موقع جريدة الراية).

١- يعد المعهد خزانة للمخطوطات الشرقية، ومتحفا للزوار، ومكتبة للعلماء، ومركزاً للدراسات العلمية، في آن واحد.

٢- انتقل المعهد إلى موسكو في عام ١٩٥٠. ويعد اليوم من أبرز مراكز البحوث في مجالات التاريخ واللغة والآداب والاقتصاد والسياسة.

٣- تحتوى خزائن المعهد عدداً كبيراً من الكتب، والمخطوطات النادرة والتمينة.

٤- ويشارك المعهد في مشاريع البحث والطباعة العالمية والمؤتمرات العلمية بالإضافة إلى تعليم الطلاب.

٥- والجدير بالذكر أن خريجي المعهد يحتلون الآن مناصب مهمة في الدوائر السياسية لمختلف الدول، ومنها الدول العربية مثل الرئيس الفلسطيني محمود عباس (معهد الاستشراق الروسي، ٢٠٠٨، موقع جريدة الراية).

إن الكتاب الروس يرون العمل في هذا الحقل ليس له أهمية في مجال العلم والمعرفة فقط، وإنما له أهمية اجتماعية - سياسية خطيرة وجادة في نفس الوقت. فهو يتعرض إلى العلاقات الإنسانية والمواقف الودية بين مواطني وشعوب الشرق مستندين على مواد ومصادر ومراجع واسعة. ويؤكد وجهة النظر هذه معظم الكتاب والرحالة الروس وتجدر الإشارة هنا إلى قول أحدهم وهو الكاتب بوريس داننسيغ حيث قال: "أن سكان بلدان الشرق الأوسط كانوا يقابلون الرحالة الروس بالود، والعطف، والاحترام، وكانوا يميزونهم عن العملاء البغيضين للدول الاستعمارية الغربية" (داننسيغ، ١٩٨١، ص ١٤). وبذلك أضاف الرحالة الروس في تاريخ الاستشراق الروسي أشياء كثيرة وجديدة وقيمة (أكاديمية العلوم السوفيتية، د.ت، ٣٦٣).

انتقل إلى العهد الجديد بعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧، وظهور الاتحاد السوفيتي ميراث غني تحول إلى عنصر أساسي لتشييد استشراق سوفيتي متطور. وقد أولى المعنيون الاستشراق جانباً ملموساً من اهتماماتهم في وقت مبكر، بحيث حظي باهتمام شخص رئيس الدولة الجديد (لينين)، فبتشجيع منه تم فتح معهد للاستشراق في موسكو ومعهد اللغات الشرقية الحية في لينينغراد. وجاء فتح الأول منهما بناء على اقتراح رفعه إليه الأديب والفاصل (مكسيم غوركي) الذي كان من الأصدقاء المقربين إلى لينين. ثم تتابع فتح مؤسسات مشابهة في عواصم الجمهوريات الشرقية (في طاشقند في العام ١٩١٨، وفي باكو في العام ١٩١٩) وفي غيرها فيما بعد (أحمد، ١٩٧٧، ص ٢١).

وورثت الدراسات الشرقية السوفيتية من استشراق ما قبل الثورة ميراثا كبيرا وكان الجيل السابق من الروس والرحالة يتميزون دائما بمعرفة اللغات الشرقية وإتقانها إلى حد كبير، والاهتمام التام بالمصادر والمراجع، والاحترام والود الدائمين لشعوب وبلدان الشرق وثقافتها الغنية. ولاشك أن المستشرقين السوفيت قد اخذوا هذه التقاليد بكاملها، وأضافوا مجموعة من المزايا والخصائص الجديدة في دراسة الشرق الأوسط غلب عليها التوجه الأيدلوجي للثورة الروسية البلشفية (داننتسغ، ١٩٨١، ص ٣٦٣).

٣- إتجاهات وخصائص كتابات المؤرخين والكتاب السوفيت

من المسلم به أن الأحداث التاريخية تخضع لقوانين معينة اجتهد المؤرخون والفلاسفة أنفسهم في سبيل كشف أسرارها منذ القديم، وبشكل خاص منذ عصر النهضة الأوروبية. والأحداث التاريخية كانت وتبقى وليدة عوامل محددة تتأثر بظروف الزمان والمكان (أحمد، ١٩٧٧، ص ٦٣). وقد أبدى الكتاب الروس والسوفيت اهتماما كبيرا في دراسة التاريخ العربي الحديث، وركزوا على أحداث مهمة، وتناولوها بالتحليل والدراسة، منطلقين من اعتبارات عدة أهمها، اعتمادهم منهج المادية الجدلية والمادية التاريخية في تفسير الوقائع والأحداث، وقد عرف هذا المنهج بتسميات عدة لدى المؤرخون منها المنهج أو التفسير المادي أو العلمي أو التقدمي، لتميزه عن التفسير التقليدي السردى، الذي يعتمد عوامل متعددة وتركيبية مختلفة في تحليل المجتمع وشروطه، أما التفسير المادي فيرى معتقديه، انه يعتمد التحليل العلمي الحديث أي تحليل العلاقة الجدلية بين العاملين الموضوعي والذاتي في تطور الأحداث، وما يتصل بنشاط المجتمع بكافة شرائحه وطبقاته في العملية التاريخية، وإبراز الجوانب المادية ويتعمق في دراسة الجوهر ليتخذها أساسا لتحليلاته دون الظواهر السطحية، ويعتبر البنى الفوقية دون أن يجردها من التفاعل انعكاسا للتراكيب السفلى: القاعدة الاقتصادية - الاجتماعية، مسترشدا بتحليلات رواده ماركس وانجلز ولينين (العلاف، ٢٠١٥، موقع الحوار المتمدن).

فلم يكتف الكتاب السوفيت بسرد الأحداث السياسية والمعارك العسكرية وما تمخض عنها، وإنما أبدوا اهتماما كبيرا في تحليل الواقع العربي بإبعاده الاجتماعية والاقتصادية مستنديين على ما أفرزته الأحداث التي سبقت فترة الاستعمار والأبعاد التاريخية والتركيز على ما وقعت عليه أعينهم من مساوئ أثناء الحكم العثماني المتأخر، والحقبة التي أعقبته التي تمثلت بالتواجد الاستعماري الغربي (داننتسغ، ١٩٨١، ص ٥).

إن هؤلاء الكتاب تأثروا بنظرة العداة التي كانت سائدة بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الروسية، وما استجد من مبادئ الماركسية-اللينينية، وقد ظهرت إسقاطاتهم على تفسيرهم للأحداث التاريخية، ورغبتهم في التأثير على الواقع العربي، ويمكن الكشف عن تلك الآراء بسهولة، فمثلا يقول مترجمة كتاب "تاريخ الأقطار العربية الحديث": "كتب لوتسكي مؤلفه منطلقاً من واقع وجهة نظر الماركسية اللينينية. إنه انطلق من رغبته في رؤية التاريخ الحديث للبلاد العربية في ضوء تعاليم ماركس، إنجلز ولينين. وكان يؤمن تماماً بانتصار المبادئ الشيوعية في حل القضايا الوطنية والكولونيالية، وفي الطاقة الثورية والإبداع الجماهيري. وهو ينتقد في كتابه وحدة السياسة الكولونيالية التي تنتهجها الدول الأوروبية ويعتبر وجودها في الشرق كشر مطلق (لوتسكي، ١٩٧١، ص ٤).

إن للاتجاهات الفكرية والأيدولوجية للكتاب والمؤرخين السوفيت أثرها الواضح في نقل آراء الأقدمين من الرحالة والمؤرخين الروس، فهم يقتبسون الآراء والمشاعر أثناء حديثهم عن شعوب الشرق، وهي تتفق مع تلك الأيدولوجية الجديدة، لذلك يظهر المؤلف كمدافع عن ما يصفه (بالشعوب المستضعفة)، وهي جميع الشعوب التي كانت تخضع للإمبراطورية العثمانية، وهذا ما كان يخدم المطامع القيصرية في الدولة العثمانية. وعادة يطرحون الشعب التركي من طبقاته الحاكمة لإدخالها في صفوف الشعوب المستعبدة، ليصبو جام غضبهم على السلطان والطبقات الحاكمة التركية، وتدفع هولاء (الوطنية الروسية) والنزعة المسيحية الارثوذكسية فضلا عن التعصب للقومية السلافية على الانحياز إلى القيصرية الروسية، ضد الإمبراطورية العثمانية الإسلامية خصوصا في الحروب المستمرة بين الدولتين منذ تأسيس الدولة العثمانية وحتى الحرب العالمية الأولى، والذي كان يظهر الجيش الروسي نزعة صليبية كما حدث خلال الحرب الروسية التركية ١٨٧٦-١٨٧٧ على سبيل المثال، وما نتج عنها من علاقات. غير أن هولاء الكتاب لا يخفون تعاطفهم مع تلك الشعوب التي كانت خاضعة للدولة العثمانية أو (المستعبدة) كما يصفونها أكثر من غيرها كتعلقهم بالعرب والشعوب المسيحية في البلقان (داننسيغ، ١٩٨١، ص ٥).

إن هذه الآراء الواردة لم تكن مطلقة في أحكامها أو نهائية، كونها تتصف بكل ذاك الحب والتعلق بالشرق العربي والإسلامي، لأن هناك من وجد فيها أي الدراسات الاستشرافية الروسية والسوفيتية، إنها سوقت لحرب أخرى من نوع آخر ضد الإسلام والمسلمين، ورغم ما قيل عن الاستشراق الروسي بأنه تميُّز عن الاستشراق الأوروبي الغربي، وإنه لم يصدر عن مثل أرضية العداء بين الغرب والشرق الإسلامي، وإنما كان بدافع الفضول المعرفي الإنساني. فإن في الإمكان إيراد أمثلة كثيرة عن توجهات الروس المبكرة نحو مناطق الشرق الأوسط بدوافع كانت في البداية دينية وتجارية، ومع ظهور السياسة كعنصر محرك جديد، سيما بعد ظهور الاتحاد السوفيتي، دخلت تلك التوجهات مرحلة جديدة اتخذت طابعا أكثر جدية وتنظيما عما كان عليها في السابق ((أحمد، ١٩٧٧، ص ١٠)).

يذكر العقيلي: "إن المستشرقون استطاعوا بمن فيهم الروس أن يوجهوا جهودا جبارة في حرب الإسلام والمسلمين، إذ ألفوا كتباً تفيض سما زعافا وأحقاداً ومطاعن، على هذا الدين، وإن يلقوا محاضرات كثيرة في الجامعات، وإن ينشروا المقالات في الصحف وإن يؤلفوا الموسوعات الكبيرة وإن يصرفوا جهد كثير من المسلمين في الردود على مزاعمهم وأباطيلهم، ولقد كانت خطة المستشرقين متعددة الوجوه والأبعاد، تعتمد إلقاء الشك في نفوس المثقفين، وتستمر على نقد جوانب معينة من الإسلام (العقيلي، دبت، ص ٩٦٧).

٥- مميزات كتابات المؤرخين والكتاب السوفيت

تميزت كتابات المستشرقين السوفيت بمميزات يمكن تحديدها بالنقاط التالية:

- ١- الاهتمام بالأدب العربي بصفة خاصة، والاهتمام بتصنيف المخطوطات وفهرستها.
- ٢- التذبذب الواضح بين الموضوعية الجادة والعداء السافر، والبعد عن الأغراض الدينية واستبدال ذلك ببث الأفكار الاشتراكية، ومحاولة إيجاد قدم لها في الشرق كبديل عن الفكر الإسلامي (عبد الفتاح، ٢٠٠٠، ص ٢٨).

٣- الاستعانة بسكان آسيا الوسطى في مجال الاستشراق، ووجود نوع من التعاطف مع شعوب الشرق، ومنها الشعوب العربية. وهذا الجانب سيتناوله البحث لاحقاً من خلال دراسة بعض المستشرقين السوفيت.

٤- الجدية في العمل فكان هناك محاولات لإظهار الحقيقة التي تجاهلتها المصادر الغربية، والاتصال المباشر بالمنطقة والاطلاع على حثثيات الظاهرة التاريخية (داننسيغ، ١٩٨١، ص ٣٦٣).

٥- تميزت كتاباتهم بالعلمية والتفسير المنطقي للأحداث: فاعتمدت تحليل الأسباب والتحقق من النتائج، والتركيز على العوامل المؤثرة في الحدث التاريخي، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، مع التركيز على العامل الاقتصادي، فالمنهج الاقتصادي فعل فعله مع المستشرقين السوفيت فعندما يتناول مؤرخ مثل كوتلوف (ثورة العشرين) في العراق، فإنه رغم إبداعه في تقديم صور متعددة الأبعاد للثورة، فإنه إن شعر وإن لم يشعر، فقد جعل أكثر من نصف كتابه يدور حول عوامل الإنتاج وعلاقات الإنتاج، وظهرت لديه تأثيرات الثورة البلشفية وانعكاساتها على الدراسة واسقط كثيراً من الصور والأفكار البنيوية للماركسية، وبدا يفصل بين أجزاء الشعب العراقي وصفه إلى طبقات متباينة وأحياناً متناحرة، وفصل بين الريف والمدينة، وجعل من سكنة المدينة من هم رأسماليين وآخرين ينتمون إلى الطبقات العمالية، وفيما بعد سوف نعزز هذه المقولات بمتابعة بعض النصوص من خلال دراسته لثورة العشرين.

٦- اعتمادهم على مصادر مهمة ومختلفة ومتنوعة مما أعطاهم مصداقية، وهذا ما نلاحظه في الكتب التي بين أيدينا فيونداريفسكي في كتابه "سياسة إزاء العالم العربي" لم يكتف بالاعتماد على الوثائق القيمة في أرشيف وزارة خارجية الاتحاد السوفيتي، فقد تهيأت له إمكانية العمل في الأرشيف الوطني في الهند وأرشيف الدولة في بريطانيا، والاطلاع على الوثائق القيمة في الأرشيفين الدبلوماسيين لألمانيا في عهد وليم الثاني (١٨٨٨-١٩١٨) وعهد النازية (١٩٣٣-١٩٤٥) (يونداريفسكي، ١٩٧٥، ص ٦).

إن الأغلبية الساحقة من الوثائق المحفوظة في الأرشيفات الغربية لم تصبح في متناول الأيدي إلا في السنوات الأخيرة. وهي عوامل دفعت الكاتب في تأليف كتابه في محاولة لإلقاء الأضواء على التاريخ الحقيقي، وعلى سياسة الامبريالية والصهيونية في العالم العربي، في القرن التاسع عشر والقرن العشرين (حتى أواخر الحرب العالمية الثانية) وتبيان الطرق والأساليب التي حاول المستعمرين البريطانيين والفرنسيين والأمريكان بواسطتها إخضاع شعوب البلدان العربية لإرادتهم (يونداريفسكي، ١٩٧٥، ص ٦).

كما كتب المؤرخ المستعرب فلاديمير لوتسكي (١٩٠٦-١٩٦٢) كتابه "تاريخ الأقطار العربية الحديث" معتمداً المنهج الماركسي- اللينيني، وفي الأصل يعد كتابه مجموعة محاضرات ألقاها في الجامعات والمعاهد السوفيتية صدرت الطبعة بهذا الاسم (لوتسكي، ١٩٧١، ص ٣).

هناك نماذج على جانب كبير من الأهمية من الدراسات التي أعدها بعض المستشرقين السوفيت في التاريخ العربي، وهم بطبيعة الحال كثيرة لا يمكن الإحاطة بدراساتهم جميعاً في مثل هذا البحث، لذا تم اختيار ثلاث كتب كنماذج لمستشرقين سوفيت، تم تسليط الضوء على جوانب معينة منها، من خلال نصوص اختيرت لإيضاح بعض الأفكار، وهي على التوالي كتاب "ثورة العشرين" لكوتلوف، وكتاب "تاريخ الأقطار العربية الحديث" للوتسكي، وكتاب "سياسة إزاء العالم العربي" ليوندارفسكي، وهي بمجموعها تشكل نسيج متميز عرف به الكتاب السوفيت، فتم التركيز من خلال الأول،

على الشروط المادية في تحليل الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمع العراقي، التي قادت إلى ثورة العشرين، أما الثاني فتناول قضية مهمة تعرض لها المؤلف وهي (السياسة الاستعمارية) للدول الغربية، وينتقد في كتابه بحدة السياسة الكولونيالية التي انتهجتها الدول الأوروبية، أما الثالث سياستان إزاء العالم العربي، فقد سعى بوندارفسكي إلى استعراض سياسة أخرى إزاء العالم العربي، وهي على طرف نقيض مع السياسة الاستعمارية. إنها السياسة اللينينية كما عبر عنها، سياسة الصداقة والأخوة التي انتهجتها أول دولة اشتراكية في العالم، يعني بها الاتحاد السوفيتي.

٦- كوتلوف وطبيعة ثورة العشرين

في حوار لأحد الكتاب في صحيفة المشرق، مع المؤرخ كمال احمد مظهر، وقد سأله عن الدوافع والأسباب التي دفعت بعض المستشرقين السوفيت (الروس) للكتابة عن ثورة العشرين ولماذا؟ فأكد أن الباحثين والمستشرقين السوفيت كتبوا عن ثورة العشرين بعض المقالات، وفي أثناء الثورة كانت الصحف الروسية تنقل أندر الأخبار عن الثورة، وتناول رجال الصحافة والكتاب الكثير عن الثورة وجوانب مهمة منها، فقدمت صوراً عكست اهتمام ونظرة خاصتين بالثورة (كاتب عراقي، ٢٠٠٩، ص ٧).

وكان من بينها مجموعة من المقالات التي ضمها كتاب (ثورة العشرين في الاستشراق الروسي) والذي تكون من عدة موضوعات منها (لمحة عن الاستعراب الروسي والسوفيتي) و(العراق في الاستشراق الروسي والسوفيتي) و (ثورة العشرين في الاستشراق الروسي) و(هل هي ثورة أم انتفاضة). وبين مظهر فيها، أهم الأسباب التي دفعت المستشرقين الروس ودعتهم إلى الاهتمام بالثورة، وبالأخص هؤلاء المستشرقين الذين ضم الكتاب مقالاتهم عن ثورة العشرين، فهم كانوا يعتقدون أن الثورة كانت من المؤثرات المهمة لبقطة الشرق الأوسط، وكونهم كانوا ينظرون إلى الثورة بأنها بمثابة ضربة قوية وجهت إلى المصالح البريطانية، فضلاً عن كونهم باحثين يهتمون بهذا حركات وبهكذا تطورات، إلى جانب نظرهم الخاصة للعراق، بأنه بلد ألف ليلة وليلة وبابل والجنائن المعلقة وحمورابي وبيت الحكمة، وحفزهم على هذا الاهتمام، تلك الرحلات التي قام بها الرحالة الروس إلى العراق، وكتبوا عن هذا التاريخ الزاهر وهذه الحضارة المشرقة مثل المستشرقين (كوتلوف-فيدشكا-اسراتيان - كوكورياجين) (كاتب عراقي، ٢٠٠٩، ص ٧).

إن أول دراسة موضوعية عن " ثورة العشرين " تعود إلى العام ١٩٢٢، وهي من تأليف كوركو كورياجين بعنوان " حركة التحرر الوطني في المشرق العربي. بلاد ما بين النهرين " ومن المفيد أن نشير إلى أن المؤلف أورد في مثل ذلك الوقت المبكر بالنسبة لتاريخ " ثورة العشرين " معلومات مهمة عنها تبين بوضوح بعدها التحرري وهو يستند في تقويمه لأحداث الثورة إلى حقائق وردت في المصادر البريطانية وعلى لسان المسؤولين الانكليز وصحافتهم (احمد، ١٩٨٧، ص ٤٧).

ومن بين أولئك المستشرقين السوفيت الذين اهتموا بثورة العشرين هو المستشرق السوفيتي المعروف (كوتلوف)، ولد عام ١٩٠٦، وتخرج من الكلية الشرقية بموسكو عام ١٩٣٠، وعين أستاذاً للتاريخ فيها، له محاضرات ودراسات في تاريخ العرب المعاصر، والحركات الوطنية والتحرر الوطني في البلدان العربية، وقضية الوحدة العربية، ترك وراءه مجموعة من الدراسات القيمة عن التاريخ العربي الحديث والمعاصر،

منها كتابه " نشوء حركة التحرر الوطنية في المشرق العربي أواسط القرن التاسع عشر- ١٩٠٨، صدر في موسكو عام ١٩٧٥، ٣٢٤ صفحة. وكتابه "الأردن" صدر في موسكو أيضا في ١٩٦٢، ٣٦٢ صفحة. وكتابه " الجمهورية العربية اليمنية"، موسكو ١٩٧١، ٢٨٦ صفحة (أبو هلاله، ١٩٨٧، ص ٢٩).

نال شهادة الدكتوراه من معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية عن رسالته الموسومة (انتفاضة عام ١٩٢٠ الوطنية التحررية في العراق) والتي نشرت عام ١٩٥٨ في كتاب مستقل باللغة الروسية (احمد، ١٩٨٧، ص ١١).

إن هذه الدراسة تكشف عن مرحلة من أهم المراحل في تاريخ الحركة الوطنية التحررية في العراق الحديث، هي ثورة العشرين التي فتحت الطريق لنضال الجماهير الشعبية في العراق من اجل الاستقلال الوطني للبلاد. وتعتبر هذه الدراسة محاولة لإظهار الدوافع والأسباب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لتلك الثورة، كما سعت لتوضيح مراكز القوى الطبقية في نضال الشعب العراقي من اجل التحرر الوطني، وموقف الطبقات المختلفة والفئات الطبقية للمجتمع العراقي أثناء الثورة. كما تعمل على تقييم نتائج الثورة، وتحديد أهميتها ومكانها في التاريخ الحديث للبلاد. وجدير بالذكر انه لم تصدر في الاتحاد السوفيتي، قبل هذا المؤلف دراسة علمية عن الثورة. ويلاحظ أن المصادر الخاصة بتاريخ العراق في تلك الفترة قليلة جدا (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ١٠-١١).

وكان ذلك يكفي لجلب أنظار المؤرخين العراقيين والأجانب إلى "ثورة العشرين" فقلما يوجد حدث في تاريخ العراق المعاصر حظي بالبحث والدرس ما حظيت به أحداثها التي كرس لها عدد من الكتاب العراقيين دراسات مستقلة مرموقة (احمد، صفحات من تاريخ العراق، ص ٤٦). كما تطرق إلى وقائعها عدد من المستشرقين الأجانب منهم، اوهانيسيان ولفين وفيدجينكا وفيليب ايرلند وارنولدولسن وآخرون. وثورة العشرين هي الوحيدة بين أحداث تاريخ العراق المعاصر كرس لها أكثر من رسالة واحدة على الصعيد الجامعي في الخارج (احمد، ١٩٨٧، صفحات من تاريخ العراق، ص ٤٦).

قدم كوتولوف في مقدمة الكتاب تحليلا للمصادر التي تناولت تاريخ العراق في بداية القرن العشرين على قلتها واختلاف أنواعها ولغاتها، واهم تلك المصادر، هي الوثائق التي أصدرتها السلطات الاستعمارية البريطانية، مثل "بحث في الإدارة المدنية" لسنة ١٩٢٠، و"تقارير الموظفين الانكليز في العراق إلى مجلس عصبة الأمم" (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ١١).

وهذه الوثائق تتحدث بالتفصيل عن التاريخ الاقتصادي للعراق ونشاط السلطات البريطانية في هذه البلاد، لكنها كما يقول لا تتحدث عن الحركة الوطنية التحررية لتلك الفترة ما عدا بعض التعليقات لبعض ظواهر الأحداث، كما أفاد الباحث من بعض الدراسات التي قام بها القناصل الانكليز في بعض البلدان الأوربية في النمسا والمجر وبلجيكا وروسيا، وهي دراسات ذات قيمة عالية عن البناء الاجتماعي والاقتصادي للعراق قبل الاحتلال، إلى جانب الصحافة البريطانية والأمريكية، التي تعتبر مصدرا علميا غنيا عن الحالة السياسية في العراق، واستطاع الحصول على عدد ليس بالقليل من مذكرات الإداريين الانكليز أمثال، (يونج) و(ب ديكسون)، وكذلك الدراسة التي وضعها المندوب السامي البريطاني في العراق (ارنولد ويلسون) ١٩١٧-١٩٢٠ في جزئين (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ١٣).

ومع اختلاف وجهات النظر التي تنطوي عليها تلك المصادر، إلا أنها احتوت على وثائق ثمينة، بشأن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في العراق قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، وفي السنوات الأولى التي تلتها التي ركز عليها كوتلوف، ويمكن اعتبار تقارير ومذكرات الرحالة الذين زاروا العراق، من المصادر القيمة لدراسة العلاقات الاجتماعية في فترة الاحتلال التركي للعراق. ونذكر بصورة خاصة الرحالة الروس: (جيركوف، ي.ي) و (بينزرك) و (كارتسيف) و (شيلكوفنسكوف)، وكذلك كبار المسشرقين في دول أوروبا الغربية، أمثال (أ. زاخاو) و (م. اوبينكيم) وغيرهم (كوتلوف، ١٩٨٥، ص ٢٥).

نقل كمال احمد مظهر بعضا من آراء الكاتب علي الوردي الذي انتقد فيها الباحث الروسي كوتلوف على أساس، أن الأخير في ذهنه مسطرة يريد تطبيقها على المجتمع العراقي بوجه خاص. ولأنه يريد في دراسته أن يثبت أولا أن المجتمع العراقي كان قبل الثورة يسيطر عليه الإقطاع، وأن الذين قاموا بالثورة، هم جماهير الفلاحين والعمال والحرفيين ثم يستدرك أي كوتلوف فيقول أن قيادة الثورة كانت في شيوخ العشائر ورجال الدين والبورجوازية الوطنية، ويضيف الوردي كيف يمكن "أن تكون الثورة قامت ضد الإقطاع بينما شيوخ العشائر تولوا قيادتها" (أحمد، ثورة العشرين، ص ٦٢).

وعلق حينها علي الوردي قائلا: "يؤسفني إنني لا استطيع أن أوافق هؤلاء الكتاب على رأيهم في كتاب كوتلوف"، بعد أن سطر بعض الآراء التي أوردها على لسان بعض الكتاب الذين وجدوا في كتاب كوتلوف، أنموذجا حيا للبحث العلمي الحديث، ونحن بأمس الحاجة إليه لتقييم تاريخنا في ضوءه، وبأنه يمتاز عن كل المؤلفات الأخرى التي كتبت عن ثورة العشرين، بكونه يتضمن تحليلا علميا للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي مهدت للثورة، وأنه اعتمد أسلوبا جديدا يضع الجماهير - التي هي صانعة التاريخ - في المكان الأول من الحوادث (الوردي، ١٩٧٨، ص ٢٧٤).

يقول مظهر: "حاول كوتلوف تقديم صورة واقعية عن "ثورة العشرين" كظاهرة تاريخية تفاعلت في صنعها عوامل نابغة من الظروف الموضوعية للمجتمع العراقي نفسه. ثم انه لم يحاول أن يثبت أن المجتمع العراقي كان قبل ثورة العشرين يسيطر عليه النظام الإقطاعي". فذلك مما لا يحتاج لمحاولة إثبات، فقدم صورا لرسم البنية الاجتماعية لشعب العراقي قبل "ثورة العشرين" حتى يمكن فهم العوامل الكامنة وراء مواقف وتصرفات فئات اجتماعية مختلفة غالبا ما يوليها الأستاذ الوردي نفسه اهتماما واضحا في دراساته، ويقول مظهر على لسان كوتلوف "إن الذين قاموا بالثورة هم جماهير الفلاحين والعمال والحرفيين" وأكد مرارا وعلى أساس مادي إن جميع الفئات الاجتماعية تقريبا أسهمت في الثورة ولكن اختلف دورها وموقعها (أحمد، ثورة العشرين، ص ٦٣).

رد الوردي على ما جاء به كوتلوف من أن شيوخ العشائر إنما انضموا إلى الثورة تحت ضغط عشائريهم، وإنهم صاروا يحاولون انتهاز الفرص للاتصال بالانكليز سرا، ونفى ذلك، وذكر إن الذين اتصلوا بالانكليز إنما لمناقشة وطلب الاستقلال، وأورد الوردي أسماء الذين قاموا بالاتصال، ونفى عنهم جملة وتفصيلا الاتهام الذي وصفهم به كوتلوف، وقال: "إن الشيوخ الذين وصفهم بالانهزامية والانتهازية هم شيوخ بني حليم الذين كانوا أشد القادة صمودا في ثورة العشرين". واعتمد في دحض رأي كوتلوف على روايات مختلفة منها رواية أحد العراقيين وهو (المزهر الفرعون)،

وكان من جملة الذين حضروا الاجتماع بين شيوخ (آل فتلة) والقادة الانكليز، وقال الفرعون: "إن الميجر الانكليزي (نوربري) حاول إغواء بعض الشيوخ فلم يوفق"، وعندما خرج الميجر من المضيف واجه أفراد العشيرة ساخرين منه لفشله في المفاوضات مع شيوخهم، وعبروا عن ذلك بالأهازيج الشعبية (الهوسة) وكان الميجر المقصود بها، ولم تكن احتجاجا على المفاوضات، كما يزعم كوتلوف (الوردي، ١٩٧٨، ص ٢٧٦-٢٧٧).

إن الطابع العام للكتاب يؤكد النظرية التي عرضها الوردي، لأن الكاتب شاء أم أبى بدت تأثيرات التفسير المادي عليه، فقد سعى بكل ما أوتي من قدرة لإثبات صحة النظرية التي ينطلق منها في تفسير التاريخ، فكان جل تركيزه منصبا على وسائل الإنتاج وعلاقتها، ودور الطبقات الاجتماعية الكادحة من عمال وفلاحين وحرفيين في الصيرورة الاجتماعية، في حين يتغافل ذكر الفئات الاجتماعية الأخرى، (شيوخ العشائر و علماء الدين ومتقنين) وان ذكرها فذلك من قبيل وضع الشيء في محله، فمشاركتهم وقيادتهم للثورة حقيقة لا يمكن نكرانها، ويمكن ملاحظة ذلك بسهولة من قراءة فصول الكتاب، حيث ركز على تشريح المجتمع العراقي وعلاقاته الاقتصادية ومرجعياته الاجتماعية، وذلك ناتج عن اعتقاد خاطئ من كوتلوف من أن المجتمع العراقي يعيش في ظل نظام إقطاعي قائم على استغلال شيوخ العشائر لأفراد القبيلة والإثراء على حسابهم، ولهذا يعتقد أن أفراد القبيلة عدلوا عن الدفاع عن حقوقها ولم يعد باستطاعتهم حيازة ابسط الأسلحة، فاعتمدوا في الدفاع عن أنفسهم على الهراوات والفؤوس (الوردي، ١٩٧٨، ص ٢٨٥).

وفيما يلي نجتزئ بعضا من مدوناته التي هي جزء من كل اتبع فيها المؤلف الأسلوب ذاته في أطروحته، ولكي تكون العينة شاملة وتعطي صورة دقيقة ومعبرة عن الكتاب ارتأى الباحث نقل نصوصا (عينات) من فصوله المختلفة مع بعض الملاحظات والتعليقات البسيطة وكما يلي: يقول كوتلوف في كتابه "ثورة العشرين": "لقد كان لتكوين المجتمع العراقي، بقومياته المتعددة وأديانه المختلفة، اثر كبير على الحياة السياسية للبلاد" (كوتلوف، ١٩٨٥، ص ٢٧).

ويبرز الكاتب في فصله الأول حقيقة تاريخية لها أهميتها بالنسبة للعراق أثرت على واقعه وعلى مستقبله، حيث خضع العراق لسلطة الإمبراطورية العثمانية طيلة أربعة قرون قادت خلالها حروب مدمرة مع إيران من اجل الاستيلاء على العراق، الأمر الذي ترك اثارا واضحة على الحياة في العراق، فقد سبب ذلك الدمار لاقتصاديات البلاد، وسبب وقوع العراق في الطرف الأقصى للإمبراطورية المترامية إلى انزاله عن المجالات الاقتصادية و السياسية والثقافية لهذه الدولة. فادى ذلك إلى هبوط الإنتاج الزراعي في العراق في تلك الفترة بشكل مروع، حيث أهملت مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية واكتسحتها الرمال والمياه والأملاح، وتحولت جميع الأراضي في جنوب العراق إلى مستنقعات (كوتلوف، ١٩٨٥، ص ٢٧). وكانت الأدوات الزراعية هي الأخرى بدائية جدا، ويعتبر المحراث الخشبي والفأس أكثرها انتشارا، إشارة واضحة إلى تأخر الأدوات الزراعية (أدوات الإنتاج)، وتأخر أساليب الإنتاج (كوتلوف، ١٩٨٥، ص ٢٩-٣٠).

وسادت القرية العراقية في بداية القرن العشرين علاقات إقطاعية متأخرة. ولم يختلف نظام ملكية الأرض في العراق عما هو عليه في بقية أنحاء تركيا من الناحية الرسمية. حيث منحت معظم الأراضي الأميرية إلى المتنفذين في الدولة لاستغلالها بصورة مؤقتة، على أساس وثائق خاصة دعت ب(الطابو) (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ٣١).

وينتقل المؤلف إلى موضوع آخر قسم العراق فيه إلى أقسام متميزة رئيسة من حيث أشكال العلاقات الاجتماعية والاقتصادية السائدة في القرية، مناطق البادية السورية والجزيرة، مناطق بغداد والبصرة والموصل ومناطق العراق الأوسط (أواسط دجلة والفرات)، وتسكن مناطق البادية السورية والجزيرة قبائل بدوية عربية، حافظت على عادات قبلية عريقة وصارمة. يقوم على تنفيذها شيخ القبيلة، ابتداءً من تحديد عقوبة السارق أو تحديد مسار القبيلة في التنقل والأرض التي تنتقل فيها القبيلة (الديرة) (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ٣٢-٣٣) وفي ثنايا عرض الكاتب للعلاقات القبائل العربية سواء البدوية أو المستقرة يعكس صورة الصراع الطبقي الذي لا هوادة فيه بين الفلاحين الشيوخ والسلطات التركية، وان كان ذلك في قبائل الفرات الأوسط أكثر وضوحاً من أجل تنظيم وسائل الري وملكية الأرض.

ولم يكن حال الأكراد أحسن حالاً حيث عانى الأكراد الرحل وأشباه الرحل (الكوجر) ظروف استعبادية لا مثيل لها وتحول معظمهم إلى رعاة مأجورين، كما حرّموا من الحقوق السياسية واضطر قسم منهم إلى الانخراط في خدمة رئيس القبيلة وحراسته وتحولت القبائل التي تسكن شمال العراق إلى تنظيمات طبقية لخدمة مصالح الإقطاعيين (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ٥٧).

أما مناطق بغداد والبصرة والموصل فهي تتميز بضمور كامل للعلاقات الأبوية، حيث طرد الإقطاعيون الفلاحين من الأرض بإسناد من السلطات التركية، وسادت في هذه المناطق حتى أوائل القرن العشرين حيازات كبيرة للأراضي من قبل الإقطاعيين، ويضرب المؤلف أمثلة حول تلك الأوضاع حيث كانت بساتين ديالى ملكاً لبضع عائلات من الأثرياء الإقطاعيين الذين يقطنون بغداد (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ٦٤). ويصر المؤلف على تفسيره للاقتصاد العراقي في تلك الفترة ويصفه بالاقتصاد الإقطاعي، ليبرهن صحة النظرية الماركسية في تفسير الحدث، فيقول: "وقد ساد مناطق الموصل وبغداد والبصرة، في أوائل القرن العشرين، شكل كامل للاقتصاد الإقطاعي، حيث لم تكن هناك فروق تميزه عن النظام الإقطاعي سوى بعض المسائل التفصيلية" (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ٦٧).

ويخلص إلى نتيجة بعد أن يسوق مجموعة كبيرة من الأمثلة، حول حيازة الأرض ووضع الفلاح البسيط ومعاناته والظلم الاجتماعي الذي لحق به من الإقطاعيين فيقول: "لقد ساد العراق بأكمله نظام الإنتاج الإقطاعي، رغم الاختلافات الكبيرة بين المناطق المختلفة في البلاد. واقتران ثراء وبذخ الإقطاعيين بمنتهى البؤس والحرمان للمنتجين المباشرين للخيرات المادية، فهم كما يقول كانوا أمام اختيار بين أمرين: حالة الفقر المدقع أو الموت جوعاً (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ٧١).

وينتقل المؤلف إلى أوضاع المدينة لتشريح نوع آخر من الاقتصاد المحلي وهو الاقتصاد (الحرفي)، ليلتقي في تفسيره للحدث بالفكر الماركسي، فيذكر انه لم يتجاوز عدد عمال الاجراء في العراق في تلك الفترة، بضع عشرات الألوف، بمن فيهم العمال الموسميّين.

ويلاحظ أن وجود عدد كبير من الفلاحين المعدمين والمحرومين من الأرض المستعدين للاشتغال في أي عمل، فضلا عن الضغط المتزايد من قبل رأس المال الأجنبي الذي بدأ يتسلل إلى البلاد، ولم يكن نتيجة عفوية لتطور الرأسمالية في البلاد، وظهرت مجموعة من المصانع البعض منها انشأتها الحكومة العثمانية لحساب الجيش والأسطول (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ٨٤). أما تطور المؤسسات الرأسمالية الخاصة فقد كان ضعيفا، ولم يظهر أي تطور سوى في بعض الفروع الإنتاجية التي تلبى احتياجات السوق المحلية كإنتاج الأقمشة الخاصة لصنع الملابس القومية ومواد الإنشاء وصناعة السجاد والصباغة، فضلا عن المنتجات الزراعية القابلة للتصدير وغيرها (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ٨٤). على أن الاقتصاد الوطني التي تطور فيها الإنتاج الرأسمالي لم تتسع بشكل عام، وكقاعدة فإنها لم تخرج عن نطاق الأشكال البدائية للرأسمالية (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ٨٥).

كل ذلك كما يقول كوتولوف: "أدى إلى أشجع الاستغلال للعمال وانخفاض الإنتاج الحرفي في المدينة العراقية إلى حد كبير، وواجهت الصناعة الحرفية الخراب أكثر من أي فرع آخر من فروع الإنتاج" (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ٨٧). ليوضح بشكل دقيق ما يصيب العمال والحرفيين على أيدي الطبقة الرأسمالية وبالتالي تحميل النظام الرأسمالي تبعات ما يجري وما أصاب العمال في تلك الفترة، لذا كانت الطبقة العاملة عند نشأتها، قليلة العدد، شديدة الارتباط بالمجتمع الإقطاعي، ولم تكن تمثل قوة طبقية محظوظة. واهم أسباب تأخر الوعي الطبقي للعمال، عدم استقرار الطبقة العاملة، وخاصة فئة العمال الموسميين، الذين كانوا يعتبرون العمل في المدينة مساعدا مؤقتا للاقتصاد أفلأحاي، فضلا عن تبعثر العمال في مؤسسات صغيرة، فالاستغلال البشع للعمال قد سبب بؤسا مرعبا ومجاعة لا مثيل لها لجماهير سكان المدن، فقد عاش الحرفيون والعمال والمتشردون في أكواخ متهدمة أشبه بالأقفاص وفي زرائب ضيقة من الطين وفي ظروف صعبة وغير صحية للغاية (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ٩٠).

وكمدخل لموضوع الكتاب في الفصل الثاني الذي تناول فيه المؤلف موضوع العراق خلال الحرب العالمية الأولى وسياسة المحتلين الإنكليز. بدأ المؤلف بمناقشة قضية الاقتصاد العراقي والدور الحاسم للرأسمالية في توجيهه منذ أوائل القرن العشرين، حيث وضعوا أيديهم على التجارة الخارجية وشبكة المواصلات في البلاد، واستخدموا العراق سوقا لتزويد الصناعة البريطانية بالمواد الخام (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ٩٩).

وبدا المؤلف يذكر ملامح الموقف الدولي وتأثيراته بين الدول الاستعمارية ألمانيا، وإيطاليا، وفرنسا، وتوجيه الأحداث في المنطقة كل لصالحه (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ١٠٤). وأدت بعدها الحرب العالمية الأولى بالنسبة للعراق إلى زيادة التأزم الاقتصادي، حيث استخدم كلا الجانبين المتنازعين الإمكانيات والثروات المتوفرة في البلاد لتلبية احتياجات القوى المسلحة (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ١٠٥). وأدى هبوط الإنتاج الزراعي وتوقف استيراد البضائع الصناعية إلى ارتفاع فاحش في الأسعار (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ١١٢). وواجهت جماهير الشغيلة في العراق المجاعة والموت نتيجة تلك الظروف (كوتولوف، ١٩٨٥، ص ١١٣)، فأثرت هذه الأوضاع بشكل أو بآخر على الحركة الوطنية في العراق، وعلى تطور النضال الوطني التحرري لشعب العراق لتبدأ صفحة جديدة من حياة العراق بقيام الثورة عام ١٩٢٠.

٧- لوتسكي والدور الاستعماري للدول الغربية

المؤرخ المستعرب فلاديمير بوريوفيتش لوتسكي (١٩٠٦-١٩٦٢) الذي هو أكبر اختصاصي سوفيتي في مجال تاريخ البلاد العربية الحديث والمعاصر، تخرج من الكلية الشرقية بموسكو ١٩٣٠، وعين أستاذا للتاريخ فيها، وله عدة أبحاث عن تاريخ البلدان العربية الحديثة، في المجموعات الصادرة عن جامعة موسكو، ومحاضرات ودراسات في تاريخ العرب المعاصر، وحركاتهم الوطنية، والتحرر الوطني في البلدان العربية، وقضية الوحدة العربية (لوتسكي، ١٩٧١، ص ١).

وكان من العلماء الذي ينكبون على عملهم ويسيروا بجرأة في سبل غير مطروقة من ذي قبل. وهو يعد مؤسس المدرسة السوفيتية للمؤرخين المستعربين. ففي نتاجاته ومحاضراته الجامعية. قدم تاريخ الأقطار العربية الحديث لأول مرة كمادة بحث مستقلة قائمة بذاتها، وقد كتب لوتسكي مؤلفه منطلقاً من وجهة نظر الماركسية اللينينية. وكانت رغبته ان يرى التاريخ الحديث للبلاد العربية يتشكل في ضوء تعاليم ماركس- وإنجلس، ولينين. وكان يؤمن تماماً بانتصار المبادئ الشيوعية في حل القضايا الوطنية والكولونيالية. وهو ينتقد في كتابه بحدة السياسة الكولونيالية التي تنتهجها الدول الأوروبية ويعتبر وجودها في الشرق كشر مطلق، ويمكن ملاحظة ذلك خلال مطالعة فصول الكتاب (لوتسكي، الحرب الوطنية، ١٩٨٧، ص ٧).

إتبع لوتسكي نفس المنهج المتبع لدى أقرانه في كتاباته حول تاريخ المنطقة العربية، فكتابه حصيلة عمل متواصل، وهو نتيجة لسلسلة محاضرات جامعية أعدها وشرع في إلقائها منذ عام ١٩٣٦ في معهد موسكو للدراسات الشرقية، وفي جامعة موسكو وفي غيرهما من معاهد الدراسات العالية السوفيتية. وقد نشر قسم من هذه المحاضرات كفصول متفرقة "التاريخ الحديث للأقطار المستعمرة والتابعة" (موسكو ١٩٤٠ باللغة الروسية)، وفيما بعد وسع لوتسكي المحاضرات الخاصة بتاريخ الأقطار العربية وأضاف إليها مواد جديدة (لوتسكي، ١٩٧١، ص ٥).

ومما يؤسف له أن محاضراته هذه لم تسجل بصورة كاملة. ولهذا اقتضى نص الكتاب "تاريخ الأقطار العربية الحديث" أن يتخذ أساساً له مسودات وتدوينات مختلفة لمحاضرات نقحت واستكملت بموجب المختصرات الموجودة في سجلات ووثائق لوتسكي نفسه، وبموجب مخطوطات طلابه الذين سترد أسماء البعض منهم في ثنايا البحث، وبما أن وثائق لوتسكي لم تحتفظ بأية صورة مدونة لمحاضراته عن غزو فرنسا للجزائر مثلاً، فإن متن الفصل الثالث عشر وضع على أساس الفصل الحادي عشر من كتاب "التاريخ الحديث للأقطار المستعمرة والتابعة" الذي كتبه لوتسكي نفسه. وقد استخدمت بعض الأقسام الأخرى من هذا الكتاب أيضاً وخاصة الفصل العاشر والفصل الثاني والعشرون لإعداد كتاب "تاريخ الأقطار العربية الحديثة" (لوتسكي، ١٩٧١، ص ٥).

وساهم لاندا في إعداد الفصل التاسع عشر "الدولة المهدية في شرقي السودان" والفصل العشرين (الجزائر في غضون الأعوام ١٨٧٠-١٩١٤) والفصل السابع والعشرين (الأقطار العربية خلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨). بينما ساهمت سميلانسكايا في تهيئة الفصل الرابع (فلسطين وسوريا والعراق في بداية القرن التاسع عشر) والفصل التاسع (لبنان وسوريا وفلسطين في عهد التنظيمات ١٨٤٠-١٨٧٠) والفصل الرابع والعشرين (سوريا وفلسطين والعراق في نهاية القرن التاسع عشر).

واستخدم النص الذي أعده لازاريف (وهو مستشرق سوفيتي له كتاب المسألة الكردية ١٨٩١-١٩١٧ أصدره مركز الدراسات الإستراتيجية في السليمانية عام ٢٠٠١ ترجمه اكبر احمد) كمادة للفصل الخامس والعشرين والفصل السابع والعشرين من هذا الكتاب (لوتسكي، ١٩٧١، ص ٧٢).

جاء الكتاب شاملاً لتاريخ الأقطار العربية الحديث والمعاصر، تناول فيه الأحداث المهمة فيها في سبع وعشرون فصلاً، سلسلها حسب التطور التاريخي، فبدأها منذ أواخر العهد العثماني وتأثير التنظيمات العثمانية وأنظمتها على الوضع الاقتصادي والاجتماعي، محللاً أهم العوامل التي أدت إلى تفسخ النظام الإقطاعي العثماني، واضمحلال النفوذ الخارجي للدولة العثمانية، وظهور الحركات الشعبية وكفاح الشعوب العربية من أجل استقلالها، ومن ثم ظهور الاستعمار الحديث والآثار المترتبة على حضوره، وحظيت مصر الاهتمام الأكبر في الكتاب، فكان نصيبها عشرة فصول قدم في الفصل الثاني دراسة للحملة الفرنسية على مصر (لوتسكي، ١٩٧١، ص ٤٣). والأحداث التي تلت ليبدأ عهد من الصراع الدولي بدخول الإنكليز في مصر، وتسلم محمد علي الحكم، (لوتسكي، ١٩٧١، ص ٥٧)، ليعود في الفصل السادس والسابع ليتابع مجريات الأحداث فتناول حملة إبراهيم باشا على الجزيرة العربية، (لوتسكي، ١٩٧١، ص ١٠٢) وفتح السودان، وصراع محمد علي من أجل سوريا وفلسطين في الفصل الثامن (لوتسكي، ١٩٧١، ص ١٢٤).

ومن ثم يتابع أحداث مصر بعد تقديمه لتاريخ عدد من الأقطار العربية في المشرق سوريا وفلسطين والعراق وأقاليم الجزيرة العربية، (لوتسكي، ١٩٧١، ص ١٧٦)، ليعود في التركيز على مصر ثانية ليعرض قضية قناة السويس بعناية فائقة، تحت عنوان الاستعباد المالي لمصر، (لوتسكي، ١٩٧١، ص ٢٢٧)، وتأثير القروض الخارجية على وضع مصر المالي، وتلاعب الدول الغربية والسيارات الأوربيين بمقدرات مصر، مما دعا الخديوي اللجوء إلى الضرائب، وحينها رهنّت الدولة السكك الحديدية العائدة لها، وازداد المبلغ الذي كان على مصر أن تدفعه لدائنيها كفوائد لقروض وسندات الدين (لوتسكي، ١٩٧١، ص ٢٣٠)، ولم يغفل المؤلف جهود الحركة الوطنية في مصر واشتداد اتجاهات المعارضة التي أفرزت انتفاضة احمد عرابي ١٨٨١ (لوتسكي، ١٩٧١، ص ٢٥٤).

وفي الفصل الثامن عشر ناقش مرحلة جديدة بدخول مصر تحت حكم الإنكليز المباشر وادعائها بان احتلالها مؤقتاً وسوف ينتهي أمده بعد تنظيم الشؤون المصرية، لتظهر من جديد الحركة الوطنية وتشابك الأحداث بعد عام ١٩٠٧ وتنشأ الأحزاب السياسية والنقابات، ومن ثم مرحلة تعاضم دور الرجعية بين عام ١٩٠٩ و عام ١٩١٤، ويترك المؤلف موضوع مصر ليبدأ بطرح موضوعات خاصة بالأقطار العربية الأخرى ليركز هذه المرة على أقطار المغرب العربي ومعاناتها من جراء التدخلات الأجنبية وسياسة الدول الاستعمارية فرنسا وبريطانيا وإيطاليا، والاتفاقات السرية بينها التي دبرتها لتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، بعد أن عمدت تلك الدول إلى الانضمام إلى وعد بلفور، وسرعان ما عملت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية على إنجاح المفاوضات الإنكلو - صهيونية (لوتسكي، ١٩٧١، ص ٤٦٨).

وأخيراً ركز المؤلف في نهاية الكتاب على مسألة هامة، أثرت على كثير من حياة العرب ومستقبلهم، وهي مسألة المعاهدات السرية بين الدول الاستعمارية، حيث كان للاتحاد السوفيتي فضل في فضح تلك المعاهدات وإعلانها على الملأ، حيث أثار وعد بلفور سخط العرب الذين صعقهم غدر الإنكليز،

ولم يكن لسخطهم حد، عندما وقفوا على حقيقة اقتسام الأقطار العربية، حيث نشرت حكومة روسيا السوفيتية المعاهدات السرية الخاصة باقتسام الإمبراطورية العثمانية، بضمنها اتفاقية سايكس - بيكو في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧ (لوتسكي، ١٩٧١، ص ٤٦٨).

فبدأت الاتجاهات المعادية للانكليز تتوسع لدى العرب، ولدى أنصار وجنود الثورة العربية، وحينها رفضوا الإسهام في الحرب إلى جانب الانكليز، وأعرب ضباط الجيش العربي عن سخطهم عن نفاق الانكليز، وشرع قادة الثورة العربية في مفاوضات مع تركيا وهددوا بعقد صلح منفرد معها (لوتسكي، ١٩٧١، ص ٤٦٨). يقول لوتسكي: "وبغية إخماد صوت الحق، التجأ حكام الامبريالية مرة أخرى إلى المراوغات الدبلوماسية والى الوعود المغرية، فقد أعلن وعد بلفور عقب نشر الحكومة السوفيتية اتفاقية سايكس - بيكو مباشرة بان هذه الاتفاقية (تلفيق عن البلاشفة)، وتبعه ولسن رئيس الولايات المتحدة بإعلان مبادئه في ٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٧ وصرح فيه بأنه سيتم حق تقرير المصير لشعوب الإمبراطورية العثمانية" (لوتسكي، ١٩٧١، ص ٤٦٩).

واستنادا إلى وعود الإنكليز الذين بدأوا يطلقونها، طلب الشريف حسين بن علي في ٣٠ آب/أغسطس ١٩١٨ إلى ريجنالد وينجت المندوب السامي في مصر تنفيذ الالتزامات التي اتخذها مكماهون بشأن تأسيس دولة عربية بعد الحرب، وكان تدمير الحسين مقترنا بالتهديد بإمكانية قيام ثورة ضد الانكليز، ومع ذلك فلم يكن لتدمير الحسين أي تأثير، وان جزءا هاما من هذا الذنب يقع على عاتق الحسين وابنه فيصل نفسيهما، فأنهما رغم عدم ثقتهم بالانكليز، ألزما العرب في الوقت ذاته بالوثوق بموقف الانكليز الودي تجاههم، فمرت مخططات الانكليز وكانت النتيجة ما جرى لفلسطين (لوتسكي، ١٩٧١، ص ٤٧١).

٨- العلاقة مع العالم العربي لدى بوندارفسكي

مارس المؤرخون السوفيت دورا غير ضئيل في كشف السياسة الإمبريالية للاستعمار الجديد في العالم العربي، واعتمدوا فيما اعتمدوا على نشر الدراسات العديدة والكتب والكراريس المبسطة لهذه الغاية، وكان قد نشأت علاقة ودية بين العالم العربي والمجتمعات الروسية أحس بها الرحالة الروس الذين جابوا المنطقة وشعورا بالاجابية في التعامل، سواء في حقبة الإمبراطورية الروسية أو الحقبة السوفيتية، الأمر الذي حدا بأحد الكتاب الروس، وهو بوريس دانتسيغ، أن يذكر في مقدمة كتابه بذلك فيقول: "إن العمل الذي نعرضه لأن ليس له أهمية في مجال العلم والمعرفة فقط، وإنما له أهمية اجتماعية- سياسية خطيرة وجادة في نفس الوقت. انه يتعرض إلى العلاقات الإنسانية والمواقف الودية بين مواطني وشعوب الشرق، مستندين على مواد ومصادر ومراجع موضوعية واسعة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن سكان بلدان الشرق الأوسط كانوا يقابلون الرحالة الروس بالود، والعطف، والاحترام، وكانوا يميزونهم عن العملاء البغيضين للدول الاستعمارية الغربية. ويزيد في القول إن العلاقة بين الروس والعرب كانت علاقة صداقة وان كافة المقتبسات والمقتطفات المعروضة في اغلب الكتب التي تتحدث عن الشرق الأوسط، تشهد على أن لصداقة الروس مع شعوب الشرق جذور تاريخية عميقة. وسيكون المؤلف سعيداً جداً، إذا ما أدى العمل المتواضع إلى توطين وتعميق علاقات الصداقة في المستقبل بين شعوب بلادنا وشعوب الشرق الأوسط (دانتسيغ، ١٩٨١، ص ١٤).

نسج الكتاب والمؤرخون السوفيت أفكارهم على هذا المنوال جازمين بان هذه الكتابات، هي حلقة وصل ودعامة أساسية لصياغة علاقات جيدة مع شعوب الشرق وخاصة الشعوب العربية في المستقبل. والكتب التي تابعت هذا المجال كثيرة، منها كتاب (سياستان إزاء العالم العربي) الذي خصص فيه المؤلف الفصل الرابع لمتابعة من خلاله سياسة الاتحاد السوفيتي إزاء العالم العربي، ويتطرق فيه إلى الجهود الكبيرة التي بذلها السوفيت منذ قيام ثورتهم لخدمة القضايا العربية العادلة، وخاصة في الأوساط الدولية فيقول: "حرص السوفيت منذ قيام الثورة البلشفية ١٩١٧ رعاية مصالح الدول العربية في المؤتمرات الدولية، ووجه انتقادات لاذعة للدول الغربية التي استأثرت بحق الوصاية على الشعوب العربية والتي اعتبرتها غير قادرة على تسيير أمورها بنفسها. فظهر نوع من التعاطف والعمل المشترك بين أطراف عربية وأخرى سوفيتية، الهدف منها تنسيق المواقف وتقديم الدعم للقضايا العربية ذات الأهمية، ففي الفترة التي عقد فيها مؤتمر لوزان زار ممثلو المنظمات الوطنية في مصر وسوريا وفلسطين والعراق والبلدان العربية الأخرى رئيس الوفد السوفيتي تشيتشيرين، لإطلاعهم على مستجدات الأمور في بلدانهم. وفي ٣٠ كانون الثاني/يناير ١٩٢٣ زار مجموعة من حزب الوفد تشيتشيرين، وسلموه عدة وثائق عن السياسة البريطانية في مصر بما في ذلك الكتاب الأسود، وعن الأعمال الوحشية التي اقترفتها الإنكليز في مصر (بونداريفسكي، ١٩٧٥، ص ٢٧٩).

يقول بونداريفسكي: "كانت الأوساط الاجتماعية التقدمية في روسيا تكن مشاعر الاحترام العميق دوما للحضارة العربية الرائعة ومشاعر التعاطف الودي إزاء النضال التحرري للشعوب العربية. ويجد المرء في مؤلفات الأدباء والشعراء الروس أمثال بوشكين وليرمولتوف مواضيع عربية غير قليلة وقد قدر بوشكين الحضارة العربية رفيع التقدير، وكتب غوغول عن العرب بشعور من الاحترام والتعاطف العميق" (بونداريفسكي، ١٩٧٥، ص ٢٦٤). كما أن المؤرخين السوفيت اخذوا يقارنون ويتطرقون إلى تأثير الثورة البلشفية على نحو معين، وينظرون إليها كمحرك مهم لكثير من الثورات التحررية في العالم ومنها العالم العربي، وقد عبر عن هذا الفهم المؤرخ بونداريفسكي بقوله: من ناحية أخرى يتعذر إلقاء الأضواء على نضال شعوب العالم العربي في سبيل تحررها الوطني ضد النير الاستعماري الامبريالي على نحو صائب بدون تحليل تأثير ثورة أكتوبر الاشتراكية، وسياسة الاتحاد السوفيتي الخارجية الأممية اللينينية، وبدون دراسة تاريخ العلاقات السوفيتية العربية. وقد درست هذه القضايا الهامة جدا في مؤلفات المستعربين السوفيت (روتشتين، ولوتسكي، ويفغيني بيلياف وايغور بيلياف ولاندا وايفانوف وميرسكي ولوتسكايا وكيلبيرغ وبريماكوف وسميرلوف وفيدتشسكو) (بونداريفسكي، ١٩٧٥، ص ٥).

وينظر بونداريفسكي إلى تلك العلاقة بأنها من صنع الشعوب، والشعوب هي التي تقرر مقدار العلاقة وقيمتها، فيقول: "بديهي إن الحكومة القيصرية لم تكن لتدافع عن شعوب البلدان العربية واستقلالها. فالأوساط الاجتماعية الروسية التقدمية هي التي كانت تدافع عن هذه الحرية وهذا الاستقلال". وعلى تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين انتقل مركز الحركة الثورية إلى روسيا وأصبح الذود عن شعوب الشرق بما فيها البلدان العربية، قضية حيوية للبروليتاريا الروسية الأكثر ثورية في العالم، ولطليعتها الكفاحية حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي بزعماء لينين، وبعد أن طور لينين النظرية الماركسية تطورا مهما حسب ظروف عصر الامبريالية، (بونداريفسكي، ١٩٧٥، ص ٢٦٧)،

ووضع برنامجاً منطقياً قوياً لتحرير الشعوب المضطهدة في المستعمرات والبلدان التابعة. فقد ربط لأول مرة مسألة القوميات ومسألة المستعمرات باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من المسألة العامة، مسألة الثورة البروليتارية ودكتاتورية البروليتاريا (بونداريفسكي، ١٩٧٥، ص ٢٦٨).

ويستطرد بونداريفسكي بالقول: "إن تعاطف شعوب الاتحاد السوفيتي مع حركة التحرر الوطني لشعوب البلدان العربية ومساعدتها في إحرار هذه البلدان استقلالها، لم يكونا محصورين في قاعات جلسات المؤتمرات العالمية وحدها، وكان هذا معروفاً لجميع الشعوب العربية، وتأسست في مناطق عدة في الاتحاد السوفيتي لجان مؤيدة لمصر، ففي باكور تأسست لجنة "ارفعوا أيديكم عن مصر" وتأسست لجان مماثلة في جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية سابقاً" (بونداريفسكي، ١٩٧٥، ص ٢٨١).

وقد أبدى لينين اهتماماً خاصاً بدسائس الدول الامبريالية في العالم العربي. فقد كتب بأشد الاستنكار عن عدوان الامبرياليين الايطاليين على عرب طرابلس الغرب في ١٩١١. وفي سنوات الحرب العالمية الأولى صدر كتاب لينين "الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية" والكتاب الذي تضمن عرضاً لتعاليم لينين عن الامبريالية وحتمية انهيارها. وبغية تأليف هذا الكتاب درس لينين عدداً هائلاً من المؤلفات والمقالات والأدلة والمعطيات الإحصائية. وطبعت ملخصات هذه المصادر والكتب مع ملاحظاته وتحليلاته في مجلد تحت عنوان "دفاتر حول الامبريالية" (بونداريفسكي، ١٩٧٥، ص ٢٦٨)، وفي أواسط العشرينات أخذت تقام أولى الاتصالات بين روسيا السوفيتية والبلدان العربية على النطاق الحكومي لتتوج ذلك التعاون بين الشعوب، وقد نقلت اغلب الكتب السوفيتية هذه المواقف وتحدثت عنها بإسهاب على شاکلة كتاب سياستان إزاء العالم العربي (بونداريفسكي، ١٩٧٥، ص ٢٨٨).

إستنتاجات

إن وضع كتابات المؤرخين الروس والسوفيت موضوع الدراسة أمام الباحثين، يعطيهم فرصة الإطلاع على الاستشراق الروسي والسوفيتي، والتعرف على أوضاعه وظروف نشأته وتاريخه، وعلى المفاهيم والأسس التي ارتكز عليها في تفسيره للإحداث وكذلك مميزاته التي يمكن حصرها بالآتي:

- ١- تميز الاستشراق الروسي والسوفيتي عن الاستشراق الغربي (الذي تضمن ببساطة الموقف التنفيذي السلطوي للاستعمار الأوربي كأسلوب للسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه)، وبكون علاقته- أي الاستشراق الروسي السوفيتي- ودية منذ نشأته مع شعوب الشرق بشكل عام، والشرق العربي الإسلامي بصفة خاصة، فإنه تطور ونما بدافع الفضول المعرفي للشعوب الأخرى.
- ٢- إن قرب روسيا النسبي من الشرق، له اثر في ربط أواصر العلاقات مع هذه المنطقة منذ زمن مبكر من التاريخ، وكان الاستشراق قوياً في روسيا منذ عهد بعيد، فقد ظهر لديها ما يعرف بالاستعراب: الذي اختص بدراسة العرب والمسلمين وأحوالهم ومميزاتهم، وقد شكلت تلك الدراسات الاساس البنيوي للاستشراق الروسي المعروف.

- ٣- تميز الاستشراق الروسي والسوفيتي أيضا بالاستقلال عن الاستشراق الغربي، فتكون معتمدا على ذاته، فجعل من الأدب والتاريخ العربي والآثار موضوعاً له، وقدم دراسات مهمة في كثير من الموضوعات المتعلقة بالشرق العربي الاسلامي، وفضح أخطاء وممارسات الاستشراق الغربي الذي ارتبط بمصالح الغرب الاستعمارية.
- ٤- يكاد يكون تاريخ الاستشراق الروسي، مجهولاً في وسط المثقفين العرب، مما جعل الباحثين يعزفون عنه لقلة المؤلفات العربية المكتوبة حوله مقارنة بما انتجه الاستشراق الغربي، وجل ما نشر عنه بعض الدراسات العامة ومقالات متفرقة في بعض المجلات العربية، تكون أحياناً متضمنة مع دراسات حول الاستشراق العالمي.
- ٥- ارتبطت روسيا بالعالم الإسلامي تاريخياً بعلاقات أثرت على الدراسات التاريخية التي قام بها مؤرخون روس وسوفيت، وعلى اتجاهاتهم وطبيعة كتاباتهم، فكانت نسبياً مؤيدة لقضايا العرب، كما تميزت بنوع من المصادقية إذا ما قورنت بالدراسات التاريخية التي صدرت عن مؤرخون غربيين، وهذا لا يعني أنها خالية من تذبذب بين صدق النوايا وسوء المقاصد تجاه التاريخ العربي والإسلامي، سيما وان كثير من الشعوب الاسلامية أخضعتها روسيا بالقوة، واصبحت ضمن الامبراطورية الروسية وجمهوريات الاتحاد السوفيتي فيما بعد، وبات التعرف على ادبياتها وثقافتها أمراً ضرورياً.
- ٦- أكدت تلك الدراسات، وخاصة تلك التي انتجت ايام الاتحاد السوفيتي على التفسير المادي وخضعت للفلسفة الماركسية، وأرجعت العلاقات الاجتماعية إلى عواملها المادية وعوامل الإنتاج. ومع ذلك وصفها كثير من المؤرخين بالعلمية وأنها اعتمدت التحليل المنطقي للأحداث.
- ٧- صدرت دراسات مهمة عن المؤرخين الروس والسوفيت، حظيت بتقدير المؤرخين على مختلف انتماءاتهم الفكرية، واحتلت مكانة متميزة في المكتبات العربية. أمثال الدراسات التي تم التطرق إليها خلال البحث، امثال: كوتلوف، لوتسكي، وبوندارفسكي، وغيرهم كثيرون.

التوصيات:

- ١- الانتباه لمنهج تلك الدراسات وطريقتها في تفسير الدراسات التاريخ العربي والاسلامي، واخضاعها لشروط المنهج الديالكتي المادي واعتماد العلاقات الانتاجية كاسباب أساسية في تفسير الاحداث التاريخية.

الاقتراحات:

- ٢- توجيه طلبة الدراسات التاريخية والسياسية لدراسة كتابات المؤرخين السوفيت بقدر الاهمية التي تمثلها كونها تعد من التراث التاريخي الانساني المشترك بين شعوب المنطقة والعالم.
- ٣- إخضاع الدراسات المستقبلية حول الاستشراق الروسي لمنهج متوازن ومحاولة الاستفادة منها في بناء علاقات مستقبلية تخدم مستقبل شعوب المنطقة.

المصادر:

١- الكتب

- ١- أبو هلاله، يوسف محي الدين ، (١٩٨٧) ، الإعلام الشيوعي المعاصر وأثره في الأمة الإسلامية، ط١، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، الأردن)
- ٢- احمد، كمال مظهر، (١٩٧٧) ، ثورة العشرين في الاستشراق السوفيتي، بغداد)
- ٣- احمد، كمال مظهر، (١٩٨٧) ، صفحات من تاريخ العراق المعاصر، منشورات مكتبة البديسي، بغداد)
- ٤- أكاديمية العلوم السوفيتية، (د.ت)، دراسة العلماء السوفيت واثر الكتاب السوفيت، هيئة تحرير العلوم الاجتماعية والعصر، موسكو)
- ٥- بونداريفسكي، غيورغي، (١٩٧٥) ، سياستان إزاء العالم العربي، ترجمة خيرى الضامن، دار التقدم، موسكو).
- ٦- دانتسيغ، ب.م، (١٩٨١) ، الرحالة الروس في الشرق الأوسط، ترجمة معروف خزنه دار الرشيد للنشر، بغداد)
- ٧- سعيد، ادوارد. و، (١٩٨١) ، الاستشراق، مؤسسة الأبحاث العربية، ط١، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت)
- ٨- عبد الفتاح، فاطمة، (٢٠٠٠) ، إضاءات على الاستشراق الروسي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، مكتبة الاسد، دمشق)
- ٩- العقيلي، نجيب، (١٩٦٤) ، المستشرقون، ط٣، مجلد ٣، دار المعارف، مصر).
- ١٠- كوتلوف، ل. ن، (١٩٨٥) ، ثورة العشرين الوطنية التحريرية في العراق، ترجمة عبد الواحد كرم، مكتبة اليقظة العربية، بغداد،)
- ١١- لوتسكي، فلاديمير، (١٩٧١) ، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، دار التقدم، موسكو)
- ١٢- لوتسكي، فلاديمير، (١٩٨٧) ، الحرب الوطنية التحريرية في سوريا ١٩٢٥ - ١٩٢٧ ترجمة ، تحقيق: محمد دياب -مسعود ضاهر، دار الفارابي.
- ١٣- الوردى، علي، (١٩٧٨) ، لمحات إجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٥، القسم الثاني، بغداد)
- ١٤- السباعي، مصطفى، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) ، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ط٢، المكتب الاسلامي، بيروت)
- ١٥- زقروق، محمود حمدي، (١٩٩٧) ، الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، ج.م.ع.)
- ١٦- الشرفاوي، محمد عبد الله، (١٩٩٢) ، الإستشراق دراسات تحليلية تفويمية، كلية دار العلوم- جامعة القاهرة)

٢-مقالات ورقية وإلكترونية :

- ١- ابراهيم خليل العلاف، الدكتور حسين قاسم العزيز ١٩٢٢-١٩٩٥ والمنهج المادي الديالكتيكي في المدرسة التاريخية العراقية المعاصرة، الحوار المتمدن، على الموقع:
<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=124228>
- ٢- حركة الاستعراب في روسيا، على الموقع:
http://mahmoudlis.blogspot.com/2009/07/blog-post_18.html
- ٣- كاتب عراقي، صحيفة المشرق، العدد ١٤٤١، السبت ٧ شباط ٢٠٠٩، السنة السادسة.
- ٤- معهد الاستشراق الروسي يحتفل بيوبيله ال ١٩٠. جريدة الراية. الأربعاء ١٢/٣/٢٠٠٨، على الموقع:
http://www.raya.com/site/topics/printArticle.asp?cu_no=2&item
- 5- Varisco, Daniel. M ,(2015 , in International Encyclopedia of the Social & Behavioral Sciences (Second Edition)
<https://translate.google.com/translate?hl=ar&sl=en&u=https://www.sciencedirect.com/topics/social-sciences/orientalism&prev=search>
- 6- WHAT IS ORIENTALISM,)2011, <http://arabstereotypes.org/why-stereotypes/what-orientalism>

جميع الحقوق محفوظة © 2020، الدكتور: هاشم حسن حسين الشهراني ، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي. (CC BY NC)